انكسار

طلال حمّاد

دخل المثقف غرفة مكتبي، متجهّم الوجه، وبدا كما لو أنه فقد كل ما يربطه بالوجود، وما يربطه بالحياة، وما يربطه بنفسه. وجلس، كمن ينزل كيس رمل ثقيلاً عليه، ولذا فهو ينزله ببطء شديد خشية أن يسقط على قدميه. تأفّف واعتدل في جلسته، كمن يتفادى، من تحته، جسماً غريباً، حاداً ومؤلماً، دون أن يفكّر بإزاحته. فهجستُ في نفسي متندّراً، أنه يفضّل السكوت على ذلك الجسم الغريب، وهو يقعد فوقه، على أن يزيحه...

طلبت فنجانين من القهوة، لي وله، وأنا أرى فنجان قهوتي السابق، أمامي، ما يزال يتصاعد منها البخار، مختلطاً بدخان سيجارتي، العالقة بين سبابتي والوسطى.

وفجأة ضحك. ضحك صديقي المثقف، وأشار إليّ أن أبدّل من وضع وسطاي، أو أن أحول وجهتها بعيداً عنه، قائلاً:

– ألا يكفي ما نحن فيه؟

وسألت: عن أيّ شيء تتحدّث؟

فقال: كل هذه الخوازيق، وتسألني، عن أيّ شيء أتحدّث؟

فقلت بدوري متندّراً، وأنا أغمز له بعيني: ألم تتعوّد عليها بعد؟

فقال: تعوّدت، ولكن..!

وقاطعته: تعوّدْ إذن بصمت. افعل، مثل الآخرين، ما دمت تقبل مثلهم بالوضع الذي أنت فيه.

فاحتدّ، دون أن يكون، في رأيي، لزومٌ لحدّته: ومَن قال لك بأنني أقبل؟

فقلت، وأنا أشير إليه بأن يهدّئ من حدّته: ومن أين تعتاش إذن؟ أليس من هذا القبول؟

فاكتأب. وهمس: إنك لا تعرف مدى نقمتي على نفسي!

قلت: متى يتوقف «جلد الذات» هذا؟ أم أن «مستر مازوخوش»، ومنذ أعلن استعماره لنا، لا يريد أن يتركنا، ولو إلى غيرنا؟

– وماذا تريدني أن أفعل؟

قفز في مكانه، كمن يقفز فوق «زمبرك»، ومن شدّة قفزته، تكسّر الزمبرك، وحين عاد فوقه بفعل قوة الجذب، تألم، وأضاف:

– لو لم يكن هؤلاء الصغار!

فصمتّ، وأنا أرى احتراقه من الداخل، وأرى عجزه عن إطفاء الحريق، وقبل أن تنفجر فيّ أحشاؤه، أشرت إليه بالهدوء، فهدأ، وأتبع: العائلة تقصم الظهر.

فهززت رأسي متفهّماً.

– والعمل في التنظيم، يقصم الظهر.

فهززت رأسي، من جديد، وأنا أفهمه.

– أقصد الحالة..

فأفهمته برأسي، وبيدي، أنني أفهمه، وأنني أدرك حالته، تماماً كما أدرك حالتي.

– وتكاليف الحياة، تأتي على الباقي، صحيحه مثل عليله.

وأنا صامت، وكأنّني بصمتي، أخلد إلى الغياب. فقد كنت أعرف تمام المعرفة بأنني أعجز عن أن أساعده، ولذا أدركته فيما يقول، ولكن بصمت، حتى عندما قال:

– كل ما يحدث من حولنا.. هذا السقوط، والفشل في تحقيق أدنى الشروط..

ثم، وهو على حافة الانفعال:

– التراجعات من ناحية. والانهيارات من ناحية. تصوّر أنني إلى الآن، لا أستوعب كيف يجرؤ أحد على أن يُسقط تاريخاً بكامله.. تاريخ الوعي، وتاريخ الثورة، والأحلام، والمبادئ الكبرى، باسم الشفافية والديمقراطية، والبروسترويكا؟!

ولأنه كان يتكلّم بفمه، وبيديه، وبدخان الحريق الذي في داخله، دون أن يقدر على إطفائه، فقد أشرت إليه، أن يهدّئ من روعه، أمام فنجان القهوة الذي امتدّت به إليه يد الساعي، الذي وقف مبهوتاً: حلمك، قبل أن تسقط فنجان القهوة! تفضّل، اشرب قهوتك، وهذه سيجارة، حمّل دخانها أنفاسك الملتهبة!

أخذ فنجان القهوة بيده، وضعه أمامه على الطاولة، ثم مدّ يده يتلقّف السيجارة بأصابعه وقال عاتباً، وقد رأيت الرجاء في عينيه: أرجو أن لا تسخر أنت أيضاً، من حالتي، أو ممّا أقول!

فطمأنته، أنني لا أفعل، وأنني أتفهمه، وأدرك حرقته، واحتراقه، فأضاف: وعلى كلٍّ، كل ما أرجوه، هو أن تكون الأخير، لو شئت أن تسخر!

وعبّ فنجان قهوته، مرّة واحدة، ونهض. وحين نهض، رأيت انكساراته وخيباته، وتذكّرت حالي. وحين مدّ يده إليّ، مسلّماً، ألبس وجهه ابتسامة مرغمة وخزتني في مكان من جسدي.

مددت يدي إليه. مددت يداً مرتجفة، وفتحت فمي لأقول ما عنّ ببالي في تلك اللحظة قوله.ولكنه قال: لا تقلْ شيئاً. أعرف أننا في البلاء سواء. وإن كنتُ هكذا اليوم، فإنني سأكون على حالة أخرى غداً. طبعاً سأهدأ إلى نفسي، وأستوعب حالي، وأركن إلى الشروط. فما الذي أستطيع أن أفعله؟ ليس بمقدوري أن أغيّر هذا العالم. وسأتحمّل وحدي مسؤولية تغيير نفسي. كيف؟ لست أدري الآن، ولكني، حتماً، سأفعل! إلى اللقاء يا صديقي العزيز. إلى اللقاء، وشكراً على القهوة والسيجارة. وأعدك بأن نتهاتف!

ومضى. وبقيت. بقيت وحدي، أمام صورته. دون أن أستطيع التخلّص منها، طوال الأسبوع اللاحق، ودون أن يهاتفني كما وعد... حتى دخل عليّ مكتبي من جديد، وعبوسه يملأ وجهه، وأطنان من الهموم تملأ صدره.

وقبل أن يحيّي، قال وهو يتقدم إلى الكرسي الفارغ أمام طاولتي: أُطلب لي فنجاناً من القهوة مضاعفاً، وأعطني سيجارة.

وجلس.

– وحتى لا يأخذنا الكلام، أريد عشرة دنانير.

مددت يدي بسيجارة، أشعلها له، وأنا أنظر إليه، وقد غلبني الصمت.

ولكنه أضاف: خجلت أن أطلبها منك في المرّة الماضية. صغاري لم يأكلوا اللحم منذ أسبوعين. وصاروا يسألونني: لماذا؟

مرّ الساعي من أمامنا، فطلبت منه أن يحضر لنا فنجانين من القهوة.

– في المرّة السابقة، حدّثتك عن انهيارات العالم، وعن ذلك الذي أسقط تاريخ الوعي والمبادئ والأحلام الكبرى، واغتال الثورة.

ورمقني بنظرة، تشوبها ابتسامة حزينة، سريعاً ما تلاشت لتترك مكانها للحزن. فسألت: هل تراجع عمّا فعل؟ أم هل انتحر؟

فقال: لا. هؤلاء لا يفعلون ذلك . ولكني جئتُ أسألكَ، إن كنتَ أدركت ما كنتُ أقصده؟

حضرت القهوة، فسرّ بها كثيراً، وتلقّف الفنجان بكلتا يديه، وقرّبه من شفتيه، رشف منه رشفتين اثنتين، وهمس: ما أطيبها ساخنة!

وحين أراحه فوق الصحن، نظر إليّ كأنّه ينتظر جوابي، فسألت: وما الذي كنت تقصده؟

فضحك ضحكة ألم لم يستطع إخفاءه، وقال: كنت أخشى ذلك.

سألته: تخشى ماذا؟

فقال: أن لا تفهمني.

ثم أضاف: يا رجل. أما زلت تجلس هنا؟

فسألت: وأين تريدني أن أجلس؟

فأسرع يقول: أما زالت تعجبك الحال؟ حالنا هذه؟ ذلك الانهيار، هو انهيارنا. الأحلام والمبادئ. التاريخ والثورة. تاريخنا يا رجل. تاريخنا.

وبكى.

كنت أحسّ به. وأُدرك مقدار الألم الذي يسكنه. وكنت أفكر بصمت. لكنه فاجأني بالسؤال: أما زلتم تفكّرون، تفكّرون بصمت، بعد كل هذا؟

وضرب فنجان قهوته بيده، فتدحرج فوق الطاولة، وقد اندلق ما فيه.

ورأيته ينهض منكسراً، وهو يمسح بيده على وجهه وعينيه.

ثم هزّ رأسه، وقال: أحسّ بأنني مثل رجل يكتشف بعد كل هذا العمر، بأنهم كانوا ينكحون زوجته، وأن الأبناء ليسوا أبناءه.

فقمت إليه، مواسياً، ومعاضداً، وأنا أقول: حسناً. اجلس يا صديقي. اجلس.

لكنه ابتعد عني، رافضاً، وهو يضيف: غورباتشوف لا يهمني في شيء. لا يهمني.

وخرج. نظرت إلى فنجان القهوة المدلوق على الطاولة، فرأيت القهوة دماً.. دماً تخثر حتى أصبح بلون القهوة.